هذا زمن لا مكان فيه لرابح

شكراً لك يا أخي حسن وألف شكر .

شكراً على كلمات طيبة نثرتَها في كتاب مفتوح خاطبتني في عنوانه بالقول : نحن معك ظالماً أو مظلوماً .

أشكرك على كلمات رقيقة افتقدتها بين قومي منذ زمن ، منذ بدأ الإنهيار الإقتصادي والإجتماعي ، فنزلت من نفسي نزول القطر على الرمضاء .

لا تعجب يا صاح لتأثري . فأنا من البشر ، وليس بين البشر من لا يفرح لكلمة حلوة ويبتئس لكلمة جارحة .

قد يكون بين الذين يهاجمونني أو يتهجمون علي من لا يدرك هذه البديهية . فهو معذور .

من حق المواطن أن يصرخ عندما يشعر بالجوع ، وما أكثر الأوجاع التي تحاصر المواطن اللبناني هذه الأيام .

من حقه أن يصرخ في وجهي من غير أن يأبه لإساءة قد يسببها لي . فأنا في نظره مسؤول . وإذا لم يتوجه المواطن إلى المسؤول في التعبير عن وجعه أو غضبه ، فأين يتوجه ؟ . .

تلقيتُ الكثير من سهام الوجع والغضب التي حملت عبارات قاسية تتجلّى فيها معاناة مطلقيها . ومن الطبيعي أن أتحمّل قساوتها . ولكن الجارح منها هي تلك العبارات التي توحي بأنني لا أشعر بما يشعرون ، أو أنني لا أعاني ما

يعانون ، أو أنني في منأى عما يتعرضون له من عنت .

والعبارات الجارحة عليّ أيضاً أن أتحملها . ولكنني كنتُ دوماً أتمنى لو ألتقي أصحابها لحظة لأقول لهم كلمة واحدة ، هي أنهم مخطئون إذ يفترضون أنني أعيش في عالم منفصل عن عالمهم . أكاد أنسى أن لي بيتاً على قمة تلة جميلة تطل على البحر ، غادرته إلى مسقط رأسي بيروت ، عاصمة الصمود والكرامة ، لأشارك أهلها عذابات الحصار الإسرائيلي في عام ١٩٨٢ ، ثم أهوال حروب الأحزاب في الأحياء ، وها أنا ما زلت بينهم أقاسمهم السرّاء والضرّاء .

سواي يستطيع أن يعبّر عن ألمه في صرخة يطلقها في وجه مسؤول . أما أنا ، فلا سبيل أمامي إلى ذلك . فأين يتوجه مثلي بصرخات ألمه ؟ . .

إن مثلي لا يملك إلا أن يكظم وجعه . وليس لسوى الأقربين أن يعلموا بما أكابد في الليل وما أواجه في النهار ، أما الأقربون ، أما أهل البيت ، فمن الذي يهمه أن يعلم بما كابدوا أو يكابدون ؟. عزائي أنّ أجرهم محفوظ عند رب العالمين ، وأعزّهم سبقني إلى جواره .

عجباً كيف أمسيتُ في نظر المتظلمين ظالماً لهم ، وأكاد أكون الظالم الأوحد . ألم يكن للحروب في أوجاعهم نصيب ؟ ومثلي لم يكن طرفاً في أي حرب . ألم يكن لمن حمل السلاح ، ولمن أمدّ بالسلاح ، ولمن تاجر بالسلاح نصيب ؟ أين مثلي من كل هؤلاء ؟ ألم يكن لمن أثرى على قوت الشعب وهنائه ومصالحه نصيب ؟ ماذا كان لمثلي من كل ذلك ؟ ألم يكن للعدو الصهيوني في هذا الشقاء نصيب ؟ ألم يكن لأطراف النزاع في المنطقة ، والذين اختاروا لبنان ساحة لتصفية حساباتهم ، في هذا البؤس نصيب ؟ ألم يكن لأبطال كامب دايفيد وحرب الخليج واجتياح الكويت ، وما كان لهذه الأحداث الجسام من انعكاسات على ساحة وطننا الصغير ، في هذا الإهتراء نصيب ؟ عجباً ، كيف أمسيت وحدي مصدر كل وبال وبلاء ؟ . .

قرأت لصديق سابق يقول ما معناه أنني نجحت في اختصاصي ، خبيراً

إقتصادياً ، في شتى أرجاء المعمورة: في الكويت لدى الصندوق الكويتي للتنمية ، في الإمارات لدى صندوق النقد العربي ، على رأس فريق الخبراء العرب لدى جامعة الدول العربية ، في فرنسا على رأس مجموعة مصرفية عربية دولية ، ولكنني فشلت في بلدي فشلاً ذريعاً .

عجباً ، هلاّ ساءل الصديق السابق نفسه عن السبب ؟ أليس من الممكن أن يكون السبب إستعصاء حال المرض الإقتصادي في لبنان لارتباطه بأزمة وطنية مستحكمة أثبتت حتى الآن أنها أكبر من هذا البلد الصغير؟ وأياً تكن خبرتي في الإقتصاد ، فما زعمتُ يوماً أنني ساحر أجترح المعجزات . هل سمع الصديق السابق بطبيب لا يستعصي عليه مرض ، مهما علا كعبه في العلم أو الخبرة ؟ لو كان هو أفضل نطاسي في العالم ، هل يستطيع أن يضمن إنقاذ كل مريض يأتي إليه ؟ لو كان الأمر كذلك لانتفى الموت في العالم .

وقرأت لصديق سابق يقول : ها هو الدولار يحلّق إلى مستوى الألف ليرة في عهدك يا سليم الحص . ولو التقيته لسألته : هل يجوز لك أن تحمّل آية الله رفسنجاني مسؤولية الزلزال الذي وقع في إيران ، أو أن تحمّل جورج بوش مسؤولية الزلزال الذي ضرب كاليفورنيا ، أو أن تحمّل الملك الحسن الثاني مسؤولية الزلزال الذي دمّر أغادير منذ سنوات ؟ فكيف أكون مسؤولاً عن أزمة انفجرت في الخليج نتيجة اجتياح العراق للكويت فكان لها فعل الزلزال على سوق النقد في لبنان ؟ . .

وقرأت لكاتب شاعر أمطرني وابلاً من الإتهامات وحمّلني أوزار المرحلة كلها ، ثم شاء أن يقطع عليّ طريق الجواب بالقول : « لا أعتقد أنكم قادرون على المواجهة وستتذرعون بالف سبب وسبب : بإسرائيل ، بالميليشيات ، بحرب الخليج ، بالمؤامرة الكبيرة » . .

عجباً ، وهل يقصد الكاتب تبرئة إسرائيل والميليشيات وحرب الخليج والصراعات الدولية من مصائب لبنان ؟ إذا كان هذا قصده ، فهو ظالم

ومكابر . وإذا لم يكن هذا قصده ، فلماذا يصرّ على تحميلي شخصياً ، من دون سائر مصادر المحنة في لبنان ، كل أوزار المشاكل التي يرزح المجنمع تحت وطأتها ؟ . .

قلتَ يا حسن قول المحب ، إنك معي ظالماً أو مظلوماً ، وقلتَ أنني ظالم نفسي في سكوتي على ظلم الآخرين لي . هذا القول العطوف يحدوني إلى إبداء ملاحظتين :

أولاً : علينا ألا ننسى أن هناك ظالماً لنا جميعاً ، هو ارتباط الأزمة الداخلية بالعوامل والمؤثرات الخارجية ، هو الأحداث الجسام في المنطقة وانعكاساتها على لبنان ، هو العدوان الصهيوني على لبنان ومطامع إسرائيل في أرض لبنان ومياهه ، وهو أخيراً لا آخراً في مصادر الدعم الخارجي التي افتعلت ورعت وغذت ظاهرة الإنقسام التي يقودها القائد السابق للجيش في تمرده على الشرعية . إذا اعترفنا بهذا الواقع فإننا نصبح أكثر إنصافاً بعضنا لبعضنا الآخر .

ثانياً : إن سكوتي قد يكون أهون الشرين . أما الشر الأدهى فهو أن أتكلم من غير أن يكون الحل في يدي ناجزاً فيقع كلامي على آذان تمجه وترفضه . وما كان في ذلك ضير لولا أنّ بين التفسير والتبرير ، في مثل الحال التي نعيش ، خيطاً يكاد لا يُرى بالعين المجردّة . وأخشى ما أخشاه أن أحاول التفسير فأغرق في التبرير في نظر الناس . وهل هناك من هو على استعداد لأن يتقبّل أي تبرير لانقطاع الكهرباء أو لشح الماء أو لاستفحال الغلاء ؟ . .

أخشى ما أخشاه أن تجعلني كثرة الكلام عملياً في موقع محامي الدفاع عن العتمة والعطش والجوع وما إلى ذلك من رزايا المرحلة . أو لست معذوراً والحال هذه إذا آثرتُ السكوت ؟ أو ليس الأولى والأصلح أن نسعى جهدنا لإيجاد الحلول وندع النتائج تتحدث عن نفسها ؟ . .

فبين أن أتحمل وزر العجز عن حل المشاكل وبين أن أتحمل وزر الدفاع عن رزايا المرحلة ، أفلا ترى يا أخي حسن أنني في واقع الأمر بين شرّين ، وأن أولهما قد يكون أهونهما ؟ . .

هذا الزمن لا مكان فيه لرابح .

هذه المرحلة لا سبيل فيها للفوز برضى الطيبين وهم في أقصى حالات الشدة والعناء . فإذا كان قدري أن أكون في صدارة هذه المرحلة ، فحسبي أن أسعى لرضى ربي وضميري . . وحفيدي . فلا طمع عندي بمستقبل سياسي .

عفواً ، لا مجال لمزيد من الإسترسال وقد جرّني حديثك بعيداً .

أعود فاكرر شكري لك . لولاك ، ولولا قلة من أمثالك ، لشعرتُ بالوحشة . . ليس في الصحراء ولا في الغاب . . وإنما بين قومي وعشيرتي . .

سليم الحص

ـ مجلة « الشراع » ، ١٩٩٠/٩/١٤ .